الحلقة الخامسة والعشرون

أبو القاسم الشابي

كان «أبو القاسم الشابي».. الشاعر التونسي الثائر، الذي اختطفه الموت قبيل أن يتم عامه الخامس والعشرين.. كأنه (نبي) الشعر في تونس، و«رسوله» الذي حمل دعوته وسار بها في تلك الربوع من أجل «الحق» و«العدل» و«الحرية».. وهو يجابه الطغاة والظلمة والجبابرة بـ «كلماته» النائرة بداية.. فـ «الشاعرة» على الدوام. يصادمهم حيناً، ويسخر منهم حيناً، ويحرض عليهم في كل حين.. وهو ينادي (أبناء أمه).. أبناء وطنه. يستيقظهم ويذكرهم بأنفسهم، ويستصرخهم.. وهو ينتقدهم وينتقد نفسه على الدوام، فبعد أن أنهى دراسته الابتدائية أو الأولية في واحدة من تلك المدن التي كان يتنقل إليها مع والده في البر التونسي.. بحكم عمله «قاضياً» - حتى عرف أبو القاسم (تونس) كلها: سواحلها وبراريها وغيطانها وقفارها، وتقلب في مناطقها: من حر «قابس»، إلى ثلوج «تالة» إلى بساتين «رأس الجبل» - اصطحبه والده عام ١٩٢٠م إلى (جامعة الزيتونة) في العاصمة التونسية وقد بلغ الثانية عشر من عمره ليحصل على شهادة الـ (اجراجسيون)..

ليأتيه الشعر مبكراً وهو في الرابعة أو الخامسة عشر، لتكون أولى قصائده (أيها الحب).. بذلك النَفَس المدهش، وتلك المعاني التي تفوق عمره:

أيها الحب! أنت سر وجودي
وحياتي، وعزتي، وإبائي
وشعاعي ما بين ديجور دهري
وأليفي، وقرتي، ورجائي
يا سلاف الفؤاد! يا سُمَّ نفسي
في حياتي! يا شدتي! يا رخائي!
أللهيبُ يثور في روضة النفس
فيطغى، أم أنت نورُ السماء؟
ليت شعري أيها الحب، قل لي:
من ظلامٍ خُلقتَ، أم من ضياء؟

فكانت قصيدته هذه.. وكأنها (بروفته) الشعرية الاولى، لينطلق بعدها بعام.. وفي الثاني من شهر يونيه من عام ١٩٢٥م وقد بلغ السادسة عشر من عمره.. هاتفاً بـ (تونس الجميلة) وحبها ومعاناتها قائلاً:

لست أبكي لعسف ليلٍ طويل،
أو لربع غدا العفاءُ مراحهْ
إنما عَبْرتي لخطبٍ ثقيلٍ،
قد عرانا، ولم نجد من أزاحهْ

ألبَسوا روحه قميصَ اضطهاد
فاتك شائكٍ يردُّ جِماحهْ
أخمدوا صوته الإلهيَّ بالعسف
أمَاتُوا صُداحَه ونُواحهْ
وتوخوا طرائق العسف والإر
هاق توًا، وما توخُّوا سَماحَهْ
هكذا المخلصون في كل صوب
رشقات الرَّدى إليهم مُتاحَهْ
غير أنَّا تناوبتنا الرزايا
واستباحت حمانا أي استباحهْ

* * *

أنا يا تونس الجميلة في لجّ
الهوى قد سبحت أيّ سباحهْ
شرعتي حُبُّك العميقُ وإني
قد بلوت مُرَّه وقرَاحهْ
لست أنصاع للواحي ولو مت
وقامت على شبابي المناحهْ
لا أبالي.. وإن أُريقت دمائي
فدماءُ العُشاق دَوْماً مُباحهْ

وبطول المدى تُريك الليالي
صادق الحب والوَلاَ وسَجاحهْ
إن ذا عصرُ ظلمةٍ غير أني
منْ وراء الظلام شمتُ صَبَاحهْ
ضيَّع الدهر مَجْدَ شعبي ولكن
ستردُّ الحياةُ يوماً وشاحهْ

ليتوجه بعد ذلك بعامين.. وهو في الثامنة عشر من عمره إلى (الطاغية) ذاته، وجبهته العريضة، ومن يمثلونه ويلتفون حوله من الأعوان والأزلام والمنتفعين به.. صارخاً:

لك الويل يا صَرْحَ المظالم من غدٍ
إذا نهض المستضعفون وصمموا!
إذا حطَّم المستعبدون قيودهم
وصبُّوا حميم السخط أيان تعلمُ!
أغرّك أن الشعبَ مُغْضٍ على قذى
وأن الفَضاء الرحبَ وسنانُ مظلم!
إلا أن أحلام البلاد دفينةٌ
تجمجمُ في أعماقها ما تجمجمُ
ولكن سيأتي بعد لأي نشورها
وينبثق اليوم الذي يترنمُ
هو الحق يغفو.. ثم ينهض ساخطاً
فيهدمُ ما شاد الظّلام ويحطمُ

غدا الرّوْع، إن هب الضعيفُ بيأسه،

ستعلم من منا سيجرفه الدمُ

ليعود بعد ذلك بشعره.. وقد بلغ العشرين من عمره (١٩٢٩م) إلى (ابن أمه) ووطنه، يستحثه ويذكّره بنفسه وهو يستنكر عليه صمته واستسلامه لألوان الظلم التي كان يتعرض لها من (بايات تونس) وأعوانهم وأتباعهم الذين كانوا وكأنهم ولاة فرنسيين.. وليسوا من أديم الأرض التونسية وترابها.. صائحاً مستصرخاً:

فما بالك ترضى بذل القيود وتحني لمن كبّلوك الجباه

وتُسكتُ في النفس صوت الحياة القوي إذا ما تغنّى صداه

وتُطبق أجفانك النيّرات عن الفجر، والفجرُ عذبٌ ضياه؟

وتقنع بالعيش بين الكهوف، فأين النشيد؟ وأين الإباه؟

أتخشى نشيد السماء الجميل؟ أترهب نور الفضا في ضحاه؟

ألا.. انهض وسرْ في سبيل الحياة، فمن نام لم تنتظره الحياة؟

ولا تخشى مما وراء التلاع.. فما ثمّ إلا الضحى في صباه

* * *

لقد بدت تلك القصائد الوطنية الفوارة كما لو أنها أكبر من عمره وتجربته.. لكنها حتماً - وكما أثبتت له الأيام وللآخرين - لم تكن أكبر من «نبوته» الشعرية، و«رسالته» الأدبية.. في بعث الأمة من ثباتها، و«الشعر» التونسي من رقدته، فقد تربى ثقافياً على التراث العربي في أزهى عصوره بين روائع الأدب الحديث بمصر والعراق وسوريا والمهجر، وروائع الآداب الغربية عبر ترجماتها...

وليس كما اعتقد الشاعر المصري الفذ الدكتور إبراهيم ناجي - صاحب أول وأجمل ترجمة لديوان (أزهار الشر) للشاعر الفرنسي الأعظم بودلير - بأن (ثقافته.. فرنسية)، بعد أن أخذ (الشابي) يراسل - منذ عام ١٩٣٣م - مجلة (أبولو) رائدة التجديد الشعري آنذاك.. وأخذت تظهر فيها تباعاً أعماله وصوره الشعرية أمام أساطين المجلة وروادها وشعراءها الكبار من أمثال الدكتور ناجي والمهندس علي محمود طه والدكتور أبو شادي رئيس تحريرها، الذي فُتن بـ (الشابي) وشعره وصوره الخلابة.. وإلى الحد الذي قدمه على كل من كان يعرفهم من شعراء وأدباء مجلته ليكتب له «مقدمة» ديوانه الوحيد (الينبوع)، على أن عشرينات القرن العشرين - ذاتها -.. كانت سنوات حافلة بالأحداث الجسام، والنقلات الكونية الكبرى على مستوى العالم كله.. فقد سقطت فيها إمبراطوريات، وزالت دول، وقام عالم جديد برعاية «عصبة الأمم» في مقرها بـ «جنيف».. حيث تطلع المشرق والمغرب العربي معاً.. إلى الحرية والاستقلال واسترداد مصيره وإرادته العربية الخالصة، فكان ذلك الفتى.. «نبي الشعر» التونسي، ورسول دعوته التجديدية الشاب (أبو القاسم الشابي).. ينتظر لحظته، يضاف إلى ذلك كله.. ما عبه من (المكتبة الخلدونية) بجامعته، وما وضعه والده الشيخ (محمد بن بلقاسم الشابي) في قلبه وعقله ووجدانه من أن (الحق.. خير ما في هذا العالم، وأن الحرية أقدس ما في هذا الوجود)!! فقد كان والده قد أمضى سبع سنوات للدراسة في الأزهر والإقامة بمصر، تعلم خلالها الكثير ورأى مصر

وهي تواجه في مطلع القرن العشرين أسئلتها الكبرى بين القبول بحضارة الغرب، أو رفضها كلها.. أو القبول بأحسن ما فيها، ثم عاد إلى تونس ليتم تعيينه (قاضياً) بعد عام من ولادة ابنه البكر (أبو القاسم الشابي).

لقد كان العام العشرون، في حياة أبي القاسم الشابي (١٩٢٩م).. عاماً عجيباً بكله!! ففيه.. بدت طلائع توهجه الشعري، وفيه قدم محاضرته الوحيدة (الخيال الشعري عند العرب)، التي هاجم فيها التقليديين من الأدباء والشعراء ومدرستهم، ومواقفهم الكلاسيكية من المرأة.. فثارت عليه ثائرتهم.. حيث رموه بعشرات الاتهامات الباطلة، لكن والده (القاضي)، وجمهرة الشعراء والأدباء التوانسة الشباب.. لم ينكروا عليه دعوته للتجديد، ومذهبه فيه.. حيث وجد (أبو القاسم الشابي) في تسامح (أبيه)، و«نصرة» شباب شعراء التوانسة ما يعزز جانبه ويثبت خطاه.. إلا أن الأقدار لم تشأ أن تُبقي له هذا الوالد العظيم بعلمه واستنارته.. بخلقه ونزاهته، وتربيته له.. فقد خطفته شاباً وهو (في الخمسين من عمره)، ليجد أبو القاسم الشابي نفسه وحيداً - وهو في العشرين من عمره - في مواجهة مسؤوليات «الأسرة» بعد موت أبيه، ومع ذلك (لم يلج باب الارتزاق من المناصب الحكومية) كما كان يفعل الكثيرون.. ورضي بحياة بسيطة زاهدة على رأس أسرته بمسقط رأسه «توزر».. حيث تزوج فيما بعد.

* * *

لقد ضاعفت «نكبة» فقد أبيه أحزانه.. والتي لم يغادرها أصلاً ولم تغادره منذ أن وعى حقيقة (وجوده) مبكراً.. وعاش تحت عتمة الخوف والتردد التي عاش تحتهما التوانسة، وتوسد ليل القهر الذي كانوا يتوسدونه.. لتأخذه (النكبة) إلى عالم «التيه» وعذاباته الجديدة.. فيكتب قصائده: (أغاني التائه)، وإلى (قلبي التائه) فـ (الأشواق التائهة).. إلا أنه لم ينس «الشاعر الرومانسي» فيه، ورسالته ودعوته إلى التجديد، ولذلك واصل كتابة قصائده التي كانت تنشرها له مجلة «النهضة» بداية ثم.. تحول بمعظمها - ومنذ أن راسل مجلة (أبولو) وتعرّف على رئيس تحريرها (أبو شادي) - إلى مجلة (أبولو)، ليعرفه شعراء المشرق العربي ونجومه في مصر والعراق وسوريا ولبنان والمهجر من أمثال شوقي وحافظ والبارودي والرصافي والزهاوي وجبران وأبو ماضي، ويحسوا بنبضه الشعري الثوري الجديد.. ربما بأكثر مما عرفه شعراء المغرب العربي آنذاك، الأمر الذي جعل منه حينها - وأكثر منه فيما بعد - «شاعراً عربياً».. بأكثر منه شاعراً تونسياً أو شاعراً من المغرب العربي، سيتغنى العالم العربي من محيطه إلى خليجه.. بـ «قصيدته» النارية (إرادة الحياة) أو (إذا الشعب يوماً أراد الحياة.. فلابد أن يستجيب القدر).. عندما تأتي بواعث ولادتها. ولحظة كتابتها.. بعد أربعة أعوام من نكبة فقده لأبيه، وهو في الرابعة والعشرين من عمره..!

* * *

لقد شاءت المصادفات.. أو «مكانته» أو عضويته بنادي (قدماء الصادقية) أن يشارك بالحضور في مؤتمر جرى عقده بالعاصمة التونسية في خريف عام (١٩٣١م) بمناسبة (الذكرى الخمسينية) لانتصاب الحماية الفرنسية على تونس، فهاله ما رآه من سراة القوم وعلية التوانسة من الساسة والعلماء والفقهاء وهم يشاركون الفرنسيين فرحتهم بـ (الذكرى)!! وهو الذي يعلم ما فعله ويفعله قادة (الحماية) ورجالاتها وجنودها والمنتفعون بها من (تفقير وتجهيل للجماهير التونسية، ومن مسخ للذاتية القومية، وما شجع عليه من تجنيس حتى يذوب هذا الشعب في بوتقة الإمبراطورية الفرنسية، ويصبح هباءً منثوراً) كما قال السياسي والمفكر التونسي الأبرز ورئيس وزراء تونس الأسبق الأستاذ محمد المزالي، فغادر الحفل موجع القلب.. يائساً.. قانطاً، وهو لا يدري ما يفعل أو ما يقول في تلك اللحظة المخجلة.. إلا أنه نفَّسَ عن نفسه بتلك الأبيات الثلاث التي قالها بعد أسابيع قليلة من ذلك الحفل:

(لا ينهضُ الشعبُ إلا حين يدفعه
عزمُ الحياة، إذا ما استيقظتْ فيهِ
والحَبُّ يخترق الغبراء، مندفعاً
إلى السماء. إذا هَبَّت تناديهِ
والقيدُ يألفُهُ الأمواتُ، مالبثوا
أمَّا الحياةُ فيُبْليها وتُبْليهِ)

لكن تلك المشاهد التي رآها وسمعها كانت تأخذ طريقها إلى

أعماق أعماقه... لتستقر بين العقل والقلب.. بين ضميره الحي ووجدانه الثائر، لينفجر بركانه الشعري بعد عامين (١٩٣٣م) بقصيدته النارية:

(إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلابد أن يستجيب القدرْ
ولابد لليل أن ينجلي
ولابد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوقُ الحياة
تبخَّر في جوها، واندثر
فويل لمن لم تُشُقه الحياة
من صفعةِ العدمِ المنتصر)!!

وإذا كان (الشابي) قد بدا آنذاك وكأن قصيدته (البركانية) تلك لم تكفه.. ولم تشفه، فأتبعها بقصيدتين في ذات العام: أحدهما لـ (التاريخ)، وثانيتهما لـ (الشعب).. ثم لحقهما بـ (ثالثة) بعد عام (إلى طغاة العالم)!! إلا أن قصيدته (إرادة الحياة) أصبحت جزءاً خالداً من التراث العربي والإنساني إذ لا يوجد عربي بامتداد الوطن العربي إلا ويحفظ بيتي مقدمتها (إذا الشعب يوماً أراد الحياة).. إلخ، ليغدو معها صاحبها (أبو القاسم الشابي) شمساً من شموس الوطنية، وقمراً فضياً من أقمارها يدوران في فلك الكون الرحيب، والأوطان المحرومة من حريتها.

* * *

لقد أصيب (الشابي) بعد تلك الليلة.. بداء «تضخم القلب» وهو في الثانية والعشرين من عمره.. ولم يجد آنذاك من يداوي قلبه الشاب، فقد كان طب القلوب يحبو في الثلث الأول من القرن الماضي.. ليموت قبل أن يتم عامه الخامس والعشرين، مأسوفٌ عليه، ومع ذلك قاد التوانسة مرتين في (حياته).. بـ «نصرته» لزعيم الوطنية التونسية «طاهر صفر».. ودعمه لقيام (الحزب الحر الدستوري الجديد) الذي التفت البلاد حوله حتى نالت استقلالها في منتصف الخمسينات، وبعد مماته بثمانية عقود.. بتلك الجماهير التونسية الحاشدة في شوارع وميادين تونس التي كانت تردد صباح مساء: (إذا الشعب يوماً أراد الحياة).. وهي تنتصر لـ (محمد بوعزيزي).. ملهم ثورتها الوطنية الخالصة عام ٢٠١١م.

لقد كان (الشابي) عظيماً.. في وطنيته، كما في إنسانيته، فلم ينس قبل أن يسلمْ الروح (والده) بالاعتذار له.. عن أيامه القليلة السعيدة التي لم يشاركه فيها!! كما لم ينس صنوه الشاعر القيرواني الضرير (أبو الحسن علي الحصري).. ليعارض درته (يا ليل الصب متى غده – أقيام الساعة موعده) بعد قرابة ألف عام!؟ بقصيدته (صفحة من كتاب الدموع).. وهو يقول له:

(غنَّاه الأمسُ وأطربَه
وشجاهُ اليوم، فما غده؟
قد كان له قلبٌ، كالطفل
يد الأحلام تهدهده

مـذ كـان لـه مَـلَـكٌ في الـكون

جـمـيـل الـطـلـعـةِ، يـعـبُـده

في جـوف الـلـيـل، يـنـاجـيـه

وامـام الـفـجـر، يـمـجـده)

ما أعظمك يا (أبا القاسم) في وطنيتك.. ما أندرك في إنسانيتك!! فإذا لم يكن «الخلود» لك ولأمثالك.. فلمن يكون..؟!